الحضارة العربية في الأندلس
التي أبدعت في ظلّ الإسلام

د. محمد ظافر الوفائي

صدر *حديثاً عن دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع بدمشق كتاب "فضل الأندلس على ثقافة العرب" من تأليف المستشرق الإسباني البروفسّور "خوان فيرنيت"، وترجمة الأستاذ نهاد رضا، وتقديم وتعليق الأستاذ فاضل السباعي. وهو الكتاب الأول في سلسلة "الكتاب الأندلسي"، التي بدأت هذه الدار الطموحة بإصدارها، وإنّ كلّ ماتُعِدّه لهذه السلسلة من كتب هو ممّا يتعلق بالأندلس، أدباً وتاريخاًوتاريخ علوم.*

ألّف الكتاب، ونشره باللغة الإسبانية عام ١٩٧٨، البروفسور خوان فيرنيت،أستاذ تاريخ العلوم العربيّة في جامعة برشلونة بإسبانيا، والذي يُنظر إليه على أنه هو الذي رسّخ أسس دراسة تاريخ العلوم العربية في الجامعة المركزية في برشلونة. وهو ذو باع طويل في حقل الدراسات العربية الإسلامية، فقد أنجز ترجمتين لمعاني القرآن الكريم إلى الإسبانية (١٩٥٢و١٩٦٣) كما ترجم حكايات "ألف ليلة وليلة" كاملةً ونشر طبعتها الأولى عام ١٩٦٤. وهو محرّر فصل "تاريخ العلوم الدقيقة عند المسلمين" المدرج في كتاب "تراث الإسلام" (الصادر عن جامعة أكسفورد).

قام بنقل الكتاب من الإسبانية مباشرةً إلى العربية نهاد رضا، الشاعر والروائي والمبدع في معرفته للّغات الأجنبية، فهو، بالإضافة إلى ماكتب في فنّ القصة والرواية، وإلى دواوينه الشعرية العشرة المطبوعة، يتقن من اللغات – عدا لغته الأمّ – الفرنسية والإسبانية والإيطالية والإنكليزية، ويُلمّ كذلك بالألمانية والروسية والفارسية والكردية واليونانية والألبانية. وأبرز أعماله منظومته الإسلامية التي سمّاها "ملحمة العهد المعاصر"، نظمها باللغة الفرنسية شعراً، وصدرت في سبعة أجزاء بدمشق في الأعوام من ١٩٩٢–١٩٩٦، وتضمّ مائتين وأربعين نشيداً في عشرة آلاف بيت.

أمّا مقدّم الكتاب وواضع حواشيه فهو فاضل السباعي، القاصّ والروائي والباحث في التاريخ الأندلسي. وقد صدر له في القصة والرواية بضعة عشر كتاباً، وتُرجمت بعض قصصه إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية والبولونية والروسية والأرمنية والألبانية والصربوكرواتية. وهو عضو في الجمعية السورية لتاريخ العلوم بجامعة حلب، وقد شارك في عدد من المؤتمرات والندوات المتعلّقة

بتاريخ العلوم عند العرب، وقدّم بحوثاً في تاريخ الطبّ والصيدلة وعلم النبات في الأندلس خاصّة. وقد بدأ بصفته ناشراً بداية رائدة في إصداره سلسلة "الكتاب الأندلسي" هذه، وباكورتها الكتاب الذي بين أيدينا. وسوف يليه قريباً كتاب "الفِلاحة الأندلسية" لمحمد بن مالك الطُغْنري، المعروف بالحاج الغرناطي، والذي يقوم الأستاذ السباعي بتحقيقه في الوقت الحاضر.

يقع كتاب "فضل الأندلس على ثقافة الغرب" في ستمائة صفحة، يغلفها بتجليد فنّي فاخر يعكس بحقّ الروح الإسلامية الأندلسية، أبدعه الفنان جمال الأبطح.

يتألف الكتاب من مقدمة للمؤلِّف، وأحد عشر فصلاً، يبحث في إسهامات العلماء المسلمين، في الطبّ والصيدلة والنبات، والفلسفة والرياضيات، والفلك والتنجيم والبصريّات، والكيمياء والسيمياء، والفيزياء والملاحة وعلم الأرض، بالإضافة إلى الأدب والشعر والقصة... وذلك كلّه حسب التسلسل الزمني بدءاً من القرن العاشر الميلادي (القرن الرابع الهجري) وانتهاءً بالقرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري) وماتلاه.

يعدّ الفصل الأول من الكتاب مقدّمةً تاريخيّة تبحث في بداية الإسلام، ثمّ في العصر العباسي وميلاد الثقافة العربيّة، ثم في الإمارة العربية في الأندلس، وماأنتابها من ضعف أدّى إلى ظهور دول الطوائف فيها. والدور الذي لعبه المغرب في إعادة التوازن والاستقرار إلى ذلك القطر العربي قبل انهياره.

مفارقة بين الإسلام والمسيحية

بدأ المؤلِّف، البروفسّور فيرنيت، هذا الفصل الأول بما يُمكننا أن نسميّه "مفارقة" بين الإسلام والمسيحية، في تلك الحقبة التي تعود إلى أيام ولادة الإسلام في مكّة... فقال:

" في العام ٦١٩للميلاد، الذي قد يكون القدّيس إيسيدوروس قد شَهِد فيه إحدى أسعد لحظات حياته، لدى تَرَؤُسه مَجْمعَ إشبيلية الدينيّ الثاني. في هذا العام ذاته كان هنالك رجلٌ آخرُ، مجهولٌ بالنسبة إليه، يعيش أشدَّ أيّام حياته مرارةً. فمُحمّدٌ، النبيّ العربيّ، كان قد أخفق في جميع محاولاته لهداية أهل مدينته مكّة، وفي نشر رسالته بين غيرهم، مُتعرِّضاً للإبعاد عن مدينة "الطائف"، وهو لايكاد يعرف ماسيحلّ به وبالفئة القليلة من أتباعه الفقراء المُهتدين حديثاً. وبعد انقضاء أُثني عشر عاماً على هذا التاريخ، كان كلّ شيء قد تغيّر: فقد تمكّن مُحمّد من الإمساك بزمام السلطة بقوّة السلاح، ووحّد شبهَ الجزيرة العربيّة، وأوفد سفراء إلى البلدان المجاورة- بيزنطة وفارس والحبشة - مبَشّراً بالطابع العالَميّ لدعوته، قد تكون هذه الأنباء تناهتْ إلى مسامع القدّيس إيسيدوروس (الإسباني) عبْرَ الجاليات البيزنطيّة المُستوطِنة في جنوبيّ إسبانيا، ولكنْ ماكان ليدورَ في خَلَده أن رُفاتَهُ سوف تُنْقَلُ من إشبيلية إلى مدينة ليون leon في [الشمال] نتيجةَ فتح شبه الجزيرة الإيبيريّة من قِبل أتباع الدين الجديد!"

ويتحدّث الفصل الثاني في معالم تراث العصور القديمة في العالم العربي، وفيه يذكر أصل الأرقام وتطوّر نظام العدّ، وكيف أقتبس العرب علم الحساب والفلك من الحضارات التي سبقتهم كالهندية والفارسية والبابلية، كما يذكر باقتضاب "مذهب علم التنجيم في قِرانات الكواكب"، ثم يعكف على دراسة كتاب "المادة الطبيّة Materia Medica" للعشّاب الإغريقي الشامي ديسقوريدس، الذي وصلت نسخة منه باللغة الإغريقية (اليونانية القديمة) إلى عبد الرحمن الناصر (حكمه من ٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) هديةً تَقرَّب بها الإمبراطور قسطنطين السابع عاهل القسطنطينية من أمير الأندلس، الذي كان أعظم ملوك أوربة في ذلك العصر. وكانت ترجمة هذا الكتاب قد تمّت ببغداد على يد إصطفَن بن بَسيل القسّ إلى العربية أيام جعفر المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م)، إلاّ أنها كانت ترجمةً قاصرة، فأرسل إمبراطور القسطنطينية مترجماً طبيبا هوالراهب نقولا الذي وصل إلى قرطبة عام ٣٤٠هـ/٩٥١م، وأخذ يشرح، للجنةٍ من الأطباء، مضمون الكتاب باللغة اللاتينية، اللغة التي كان يعرفها كثير من علماء الأندلس ومن أبنائها المثقفين.

مترجمو مدرسة طُليطلة

ويُسهب المؤلِّف، ويُجيد، في الفصل الثالث الذي تحدّث فيه عن تقنيّة الترجمة، وهو يقصد أتجاهَيْن فيها: الأول نَقل خلاصة الفكر الإغريقي وغيره إلى العربية وقد قام به علماء عرب، والثاني ماقام به في الأندلس مترجمو "مدرسة طليطلة" من ترجمة خلاصة هذا الفكر العربي إلى اللغة اللاتينية، وإلى اللهجات المشتقّة منها المحكيّة في إسبانيا: القشتالية والقطلونية، وإلى اللغة العِبرية أيضا.

وقد أفاض المؤلّف، في الفصول الستة التالية(الرابع حتى التاسع)، في التاريخ الدقيق للأعمال الفكرية الهامة التي وصلت إلى الأندلس، والتي قام المهتمّون من الإسبان وغيرهم، في مدينة طليطلة، والتي كانت قد خرجت من أيدي المسلمين عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، بترجمتها إلى لغاتهم، وعبر هذه القناة العلمية- مدرسة طليطلة- تمّ نقل منجزات الحضارة العربية الفكرية إلى أوروبة، خلال القرون التي سبقت النهضة الأوروبية، فكانت تلك الترجمات من أهمّ عوامل انبعاث هذه النهضة التي تابعت مسيرتها إلى يومنا هذا.

وأما الفصل العاشر فيتحدث فيه المؤلِّف عن الفنّ والأدب عند الأندلسيين، وتأثيرهما في الأدب الإسباني والآداب الأوروبية. ويتناول في الفصل الحادي عشر والأخير، الأدب القصصي عند العرب وتأثيره في آداب أوروبة، ويضع -مثلاً- مخططاً تاريخيّا دقيقا حول كتاب "كليلة ودمنة"، بيّن فيه ابتداء تأليف حكاياته الأولى باللغة الفهلوية عام ٥٥٠م، إلى أن تُرجم إلى اللغة الإنكليزية عام ١٨٨٠م، كما وضع مخططا آخر لكتاب "السندباد"، وذكر كشاهد على فنّ القصة عند العرب مقامات الحريري، وكيف انتقلت بعض حكاياتها إلى الآداب اللاتينية دون الاعتراف بالمصدر الرئيسي.

الترجمة كأنها وُضعت بالعربية

بذل المترجم الأستاذ نهاد رضا جهداً كبيرا في ترجمة الكتاب، بنصوصه المتنوّعة، من تاريخية ورياضيّة وفلكية وطبية وغيرها، فدلّل على واسع معرفته بهذه العلوم، فضلاً عن باعه الطويل في مجال الأدب والإبداع الشعري، وأنت تجد، في لغته العربية في هذا الكتاب، من الدقة في اختيار المفردات المناسبة، والمقدرة في صياغة العبارة، مايُحبّب إليك متابعة القراءة، فكأنك تقرأ كتابا قد وُضع أساساً باللغة العربية، لُخلوّه من أية عجمة تشي بأنه منقول عن لغة أجنبية... ومثال ذلك ما أوردته قبل قليل في شأن المفارقة التاريخية التي بدأ المؤلّف بها كتابه.

ولعلّ من أبرز مافي الكتاب، ممّا يجعله متميّزاً عن غيره من الترجمات العربية لكتابات المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب أمثال "زيغرد هونكه" و"ألدو ميبلي" عدا عن الكمّ الهائل من المعلومات الموثّقة والمنصفة في آنٍ واحد، ممّا يضعه في مركز رفيع بالنسبة إلى غيره... أقول: لعلّ من أبرز مافي هذا الكتاب أربعة عناصر، وهي:

١- ***الحواشي والتعليقات المضافة إلى الكتاب،***

٢- ***مقدّمة الناشر،***

٣- ***الهيئة الاستشارية للكتاب،***

٤- ***الفهارس العلمية.***

فأمّا الحواشي والتعليقات التي وضعها الأستاذ فاضل السباعي، فقد دلّلت على ثقافته التاريخية والأدبية والعلمية الواسعة. فأنت تجد هذه الحواشي والمداخلات في كل فصل، وفي كثير من صفحات الكتاب. فهو يتتبّع خطوات المؤلّف الإسباني في كلّ ما يقدمه من معلومات عن حضارتنا العربية الإسلامية: فإن رآه يتحدّث عن حضارتنا بإعجاب، جاءنا السباعي- في حواشيه- بشواهد تُعزّز رأي المولّف المعجب بمنجزات حضارتنا الباهرة. فإذا رآه يخطئ أو يسهو في ذكر رقم هنا أو معلومة هناك، بادر إلى التصحيح بلطف. وأما إذا رأى في المعلومة الواردة ما يستوجب المناقشة، فإنه يتصدّى مناقشاً ومفنّدا... وذلك ما جعل مداخلاته في الحواشي تأليفاً قد أضيف إلى التأليف.

وأما ماقدّم به السباعي للكتاب، في الملزمتين الأوليين (وهما تحملان سلسلة من الأرقام خاصة بها، ممّا يوحي بأنهما كُتبتا بعد الفراغ من طباعة الكتاب)، فهو مقدمةٌ فريدة في بابها، طرح فيها الكاتب فكرةً جديدة عن حضارة الأندلس، وناقشها بمنطق علمي واضح.

الحضارة العربية في الأندلس أُبدعت في ظل الإسلام

وتتلّخص الفكرة في طرح السؤال الوجيه التالي: هذه الحضارة الأندلسية لمن؟

ذلك أنّ فريقاً غير قليل من المستشرقين الإسبان اليوم، ينازعوننا هذه الحضارة... إنهم يدّعون:

"هذه حضارة أسلافنا الإسبان؛ فالعقول التي دبّرت، والأيدي التي مهرت، والأجيال التي تابعت التدبير والإنجاز، كانت كلُّها إسبانيةً لحماً ودماً، وكان من قبيل المصادفة -قالوا- أنّ أولئك البُناة دانوا بالإسلام ونطقوا بالعربية".

ويُجيب فاضل السباعي، على هذا الادّعاء:

"إنّا نقول، في هذا، كلمةً: إنْ كان "الدمُ الإسبانيُّ، الذي أُغتَذت منه عروقُ الأندلسيّين (ولم يكن بطبيعة الحال إسبانيّاً خالصا)، هو العنصر الفاعل في بناء صُروح هذه الحضارة... فلمَ لم يتأتَّ، لهذا الدم الإسبانيّ نفسه، أن يفعل، أن يبني، حضارةً مماثلةً في الجانب الآخر من شبه الجزيرة الإيبيريّة؛ وقد كانت الرقعة المسيحيّة تتّسع شيئاً فشيئا، وتظلّ مع ذلك قاصرةً عن أن تُقيم حضارة، على حين كانت الرقعة الأندلسيّة، التي تضيق باستمرار، تُنتج وتُبدع، وآخرُ آياتها قصر الحمراء؟!" (المقدمة ص١٥).

ولكن هذا المنطق السائغ، الذي دبّجه يراع كاتب أديب، لن يصرفني عن القول بأني كنت أتمنّى لو أنه تابع تساؤله فقال: إذا كان الإسبان هم الذين أبدعوا هذه الحضارة، فلماذا لم نعثر على أية حضارة إسبانية في العصر الذي سبق الفتح الإسلامي؟ ولماذا ياترى لم يتابعوا هم بناء الحضارة الأندلسية بعد انحسار الظلّ الإسلامي العربي عن شبه الجزيرة الإيبيرية؟ معناه -يقيناً- أنّ هذه الحضارة ما قامت إلاّ بفضل الإسلام والوجود العربي!

انحطاط الجزيرة الإيبيرية بعد خروج العرب منها

وهذا ما جعل رئيس جمهورية البرتغال الحالي جورج سمبايو، يعترف في خطبته التي ألقاها، في الصيف الماضي١٩٩٧، في افتتاح ملتقى الثقافتين العربية والإيبيرية (والمقصود بهذه الأخيرة الثقافة الإسبانية والبرتغالية ومايتبعهما من ثقافة دول أمريكا اللاتينية)، يعترف بما تتسّم به الحياة في بلاده -البرتغالية- من التأثُّر بالحضارة العربية الإسلامية في العهد الأندلسي، وقال بأنهم مدينون للتراث العربي- الإيبيري، الغنيّ جدّاً، بما كان له من تأثير... واعترف الرجل، صراحةً، بأنّ "إجلاء العرب عن الأندلس، كان من بين أسباب انحطاط شعوب شبه الجزيرة الإيبيرية"! وقد توقف السباعي في مقدمته متحدّثاً عن هذا الخطاب، وعن هذه الملتقيات الدولية المتكررة للثقافتين العربية والإيبيرية التي ترعاها منظمة اليونسكو سنويّا (المقدمة ص٢٢و٢٣).

وهيئة استشارية للكتاب

وكان للكتاب، في طبعته العربية هذه، هيئةٌ استشارية مكوّنة من عشرة أعضاء، معظمهم من الأساتذة الأكاديميين المتخصّصين (الدكتور عبد الكريم اليافي والدكتور مختار هاشم والدكتور جودت الركابي وآخرين)، اهتمّوا جميعاً بقراءة نصّ الكتاب في تجاربه الطباعية الأخيرة قراءة استيعاب،

وأبدوا ملاحظاتهم، ممّا جنّب الكتاب ولاريب الوقوع في كثير من الأخطاء. وأعتقد أنها المرة الأولى التي تؤلّف فيها هيئة استشارية على هذا الشكل للنظر في كتاب هامّ.

ويلي متنَ الكتاب بضعٌ وسبعون صفحة من الفهارس الدقيقة والرائعة، والتي تُغطّي كلّ محتويات الكتاب بشكل مدهش، منها: فهرس الأعلام، وفهرس الكُتب والبحوث (باللغة العربية وباللغات اللاتينية والفرنسية والإسبانية والإنكليزية)، وفهرس آيات القرآن الكريم ، وفهرس المدن والأماكن الجغرافية ، وفهرس الأقوام والدول، وفهرس العلوم، وفهرس اللغات، وفهرس المجلّات (العربية والأجنبية)، وفهرس المؤسسات الثقافية والعلمية، مع إحالة كل اسم أو مدخل إلى الصفحة التي ورد فيها في متن الكتاب.... وهذا -لعمري!- عملٌ قلّ أن يجرؤ عليه الكثيرون. وقد أعدّت الفهارس السيدة سَماء المحاسني، التي تشغل وظيفة مديرمكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق.

وبالاختصار، فإني أعدّ كتاب "فضل الأندلس على ثقافة الغرب" للمستشرق الإسباني، المنصف للعرب، البروفسور خوان فيرنيت، لَبنةً، بل ركيزة هامّة، في صرح تاريخ العلوم عند العرب، لايستغني عنه الطالب ولا الباحث ولاالمهتمّ بالتاريخ العلمي، ولا أتصور أن تخلو مكتبة عامة أو خاصة من نسخة من هذا الكتاب، الذي يُبرز "فضل الأندلس على ثقافة الغرب".

□□□